الزمن في المخيمات

إن الحديث عن يوم من أيام المخيمات بل عن ساعة فيه، لا عن أسابيع أو شهور أمرٌ لا طاقة لنا به، وأنّى لنا ذلك! وهي أشبه بحياة الجنة التي تسري في ذاتيتنا وتعيش في أعماق أرواحنا وتفوق تصوراتنا بأذواقها الأخروية؛ كلّ دقيقة فيها كانت كغمام الربيع تمطرنا بالذكريات، ونحن نلقي بأنفسنا على سفوح المستقبل النورانية في هذه الأحلام، ونحيا مرة أخرى بأيام الماضي المجيد بنُورها وألوانها وبهجتها ولهجتها... وكنا نستشعر بعمق أكبر أحيانًا المحاسنَ الحاليةَ بألوان الذكريات وأضواء المثل العليا، ولربما كنا ندرك في بضع دقائق أن البقاء يحيط بمشاعرنا وأفكارنا.

كنا نستيقظ كلّ سحر عندما تهب نسمات الأنس، على خرير الماء، وحفيف الأشجار، وزقزقة الطيور وأحيانًا على نسيم عليل، فنهرع إلى السجاد الظامئ إلى سماع أنين الساجدين وآهات المتهجدين، ونشعل من جديد القنديل الذي كنا نعده للممر البرزخي، ونهرول إلى نوره عندما يشتد ظلام الليل، ثم نأخذ في انتظار شروق الشمس كما تنتظر القلوب المؤمنة البعث والحشر في قبورها.

كانت الشمس تنساب من بين أغصان الأشجار كل صباح، وترسل إلينا نشوة الأوراق بخيوطها الياقوتية الذهبية، فتغشى العيون، وتمتلئ الخيامُ والتعاريشُ بيوم جديد لامع منعش مشمس محمّلٍ بأحلى النسمات، يجعلنا نعيش في عالم من الأحلام يبعث على الحيرة والذهول.

وبعد الضحى نقع تحت وطأة لهيب حرارة الظهيرة التي ينفرد الإنسان فيها بروحه، مما يدفعنا إلى اللجوء والركون إلى أحضان أشجار الصنوبر والدلب. فكنا نتجول في حقب زمنية تتداعى فيها الأفكار بين حفيف الأوراق التي تحركها تلك الرياح اللطيفة، وعندما تشتد علينا حرارة الشمس أحيانًا تزعزعنا الوساوس القائلة: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، لكن سرعان ما نفيق إلى أنفسنا جَفِلين قائلين: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، وكأننا في ساعات الصباح اللطيفة الجميلة الضاربة إلى الزرقة ننفتح على عالم آخر وأعماق أخرى.

كم كنا نتمنى في تلك اللحظات أن نكون شعراء حتى نترنم بتلال الدنيا المطلّة على الآخرة، أو رسامين حتى نرسم ونخلّد هذه الجماليات المتداخلة، أو موسيقيين حتى نسمع تلك الجوقات الموسيقية الطبيعية التي نسكر بأنغامها، ونشاركها ألحانها.

وبعد العصر كانت أشعة الشمس الذهبية في هذه الساعات الضاربة إلى الحُمرة تميل إلى الأفول رويدًا رويدا. فنبدأ في الشعور بساعات المساء البنفسجية العميقة البليغة. وحينما تودّعنا الشمس وهي تلوّح بمنديلها الأصفر فوق أشجار الصنوبر والدلب كنا نشعر بالغروب بكل حزن وأسى، ونجفل ونرتعد ونحن نشهد كيف يضرب الفناء والزوال بكل قوة على وجه كل شيء يذبل شيئًا فشيئا، ولم نكد ننهار قائلين: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، حتى نستعيد قوانا بنفحات: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ونأخذ في الاستعداد للتجول في فضاءات الليل التي تُلجِئ الناس إلى الاستغراق في الأفكار العميقة.

ومع المساء تشتد الرياح التي كانت تهبّ في العادة حلوة لطيفة، وتصيبنا بالبرد أحيانًا وكأنها رياح الشمال. في تلك الأثناء يسكن جميع مبتهلي النهار الذين تربعوا فوق الأشجار، ولا يُسمع إلا أصوات بلابل الليل. وفي ساعات متقدمة من الليل تشتد الألوان وتعذب، وتصبح أبلغ تأثيرًا وأكثر جاذبية حتى تجعلنا نفكر في حيرة: إذا كان طريق الجنة ممتعًا كلّ هذه المتعة؛ فكيف هي إذًا؟!.

في هذه الظلمة الحالكة التي تفقد فيها المصابيح بريقها نبدو ويبدو كل شيء مختلفًا، وفي هذا الجو الساحر الذي يختلط فيه الخيال بالحقيقة يصبح أهل المخيم المؤهلون للولاية أشبه ما يكونون بالروحانيين، ويسري هذا الجو النقي في أعماقنا سريان النهر.

وعندما يحل وقت النوم تنطفئ كل الأضواء ما عدا قنديلًا صغيرًا أو اثنين. فتتذكر الأرواح الغوّاصة فناءها وتبحر في التفكير فيه وكأنها تتحنث، وتأخذ في البحث عن الماوراء من طرق شتى، وتصرّ على فتح أبواب السموات بمختلف اللغات، فتصاب القلوب بقشعريرة من جراء صيحاتها التي تحاكي أنّات إنسان عصر السعادة.

وفي أوقات معينة من اليوم تتنزل علينا الصلوات والتسبيحات والأذكار الجماعية، حتى كنا نشعر وكأن الملائكة الذين يتنزّلون بها يمسحون على رؤوسنا بأيديهم اللطيفة الرقيقة الوضّاءة.

كانت هذه الصلوات والأدعية تسري إلى أعماق أرواحنا بمعانيها التي يتعذر التعبير عنها وطلاسمها التي يصعب التصديق بها، ثم تَعرض أمام ناظرينا خرائط الرحلة السماوية.

المخيم في رأيي كان بقعة مباركة تهبّ عليها رياح المحبة والشفقة ووجود الأصدقاء. كنا هناك مثل النحل في خلية روحية، نتردد بين رحيق الأزهار والعسل اللذيذ، إحدى يدينا في الأزهار والأخرى في الخلية. ولقد توحدت هذه الأفكار والمشاعر وامتزجت بأرواحنا، ورغم مرور سنين عدة فإنني ما زلت أشعر بها بقوة وحيوية في قلبي وروحي وذاتيتي.

كانت تلك اللحظات الشاعرية النيرة التي قضيناها في المخيمات تتلون خاصة أثناء أداء العبادات ودروس الوعظ وحلقات المذاكرة وتتعمق وكأننا نحتضن الروحانيين. وكان الحنين إلى الجنة يعلن عن نفسه في أرواحنا باعتبار أنها هي الوطن الأصلي لأبينا آدم عليه السلام، حيث كنا نشعر بين أطياف الضياء بالدقائق والساعات في المخيمات والجو الأخروي المفعم بالليونة والجدية والوقار، وأن الله تعالى الذي يستخدمنا في العبودية سينجز وعده لنا. فكنا نقول في أنفسنا: "هذه هي الحياة!"

إنني لا أصدق أن هذا الماضي المبارك المنير كان عبثًا وهباءً؛ لأن تلك الأيام وإن مرت خلال حقبة زمنية وجيزة إلا أنها كانت بالنسبة لنا مرصادًا للماضي بأكمله، وخرائطَ برزخية تتبدى فيها أحلام المستقبل.

وكلما قلّبت ذكريات روحي أرى أن تلك الأيام المفعمة بالشاعرية والجاذبية والشفقة واللين ما زالت تتفتح حيوية في داخلي على الدوام وكأنها ورود تتفتح براعمها دون اعتبار لموسم أو غيره، لم تكد تذبل حتى تتفتح من جديد، فتتقد روحي بأسمى المشاعر الرومانسية، وتتجدد في ذهني ذكريات لطيفة، حتى إنني أشعر بنفسي تحت تلك الأشجار اللطيفة وكأن أصوات الجراد قد اختلطت بأصداء الطلاب ذوي الأنفاس

النورانية وتسبيحاتهم وتراتيلهم وشكلت جوقة موسيقية مختلفة. ثم أبتسم على طالعي في متعة مختلطة بالأشجان.

من يدري كم من أسرار لم تكشفها لنا تلك المخيمات!. لقد استوعبنا ما تسلل منها إلى آفاق أفكارنا وتخيلاتنا، وحاولنا عرضها بقدر المستطاع، غير أن تلك الأيام ستظل بالنسبة لي حتى النهاية أزهى فترات حياتي.

فلو أتيحت الفرصة للناس لاصطحاب ذكرى ما في الرحلة إلى الدار الآخرة فلا جرم أنني كنت سأحمل معي ذكريات تلك المخيمات التي تشبه أزهار الربيع في تألقها وخيالاتها وغموضها وزرقتها.

ورغم أنني أجد صعوبةً في الحديث عن هذا الجو الوديع في تلك المخيمات لمن لم يعيشوها معنا فإنني وددت أن أتحدث عنها؛ لعل رغبتي هذه تسوق المؤهلين الذين يسمعون حديثي ويرون عجزي وضعف قابليتي في السرد والحكي إلى التنقيب عن هذه المخيمات ودراستها والتعبير عنها بأبعادها الحقيقية. فإن كان لحديثي منفعة بهذا القدر اعتبرت نفسي سعيدًا ومحظوظًا.

أيام المخيمات[٢٥]

إن الذين عاشوا معنا تلك الأيام المفعمة بالأحلام
حيث يهب نسيم الجِنان
سمع من سمع منهم نغمات البقاء
بأصداء فولاذية

***

لتلك البقاع أشواق وأنين
كأنها تشتاق إلى تلك الوجوه المُشرقة
فلو نطقت الأشجار والأحجار
لحدّثتنا بأحاديث ساحرة

***

تغريد الأطيار، وحفيف الأشجار، وأنين الأخيار
وأفئدة غدت لنجوم الليالي من السُمَّار
في كل مكان قلوب أوّاهة تجأر ليل نهار
نغمات ما زالت أنّات للوادي الأخضر

***

قامات تقوم حتى الصباح بالدعاء
وعيون ساهرة ذات معان بلّورية
إن هذا التضرع يماثل ما في السماء
سنوات خلَت وما زال قلبي يحنّ لتلك الأيام

***

لو رأيتَ النهر لارتعدتَ وقلتَ:
ما زالت تلك النظرات السعيدة تبتسم في قاعه
ولبادرتَ ساعيًا إليه
إنِ اليوم فذاك وإلا فغدا...

---

(٢٥) من شعر الأستاذ فتح الله.

أحداث ١٢ مارس/آذار ١٩٧١م

ومضى الأستاذ فتح الله في مسيرة الوعظ بعد أن غادر كستانه بزاري. لكنه -وهو القائل: "للأحداث لغة خاصة"- كان يرى أن الدولة على حافَة الهاوية، وفي مذكرات الجيش إلى الحكومة في ١٩٧١/٣/١٢م ما يؤكِّد ذلك؛ بدأت الاعتقالات. ولم يكن للأستاذ فتح الله أيّ هدف سياسيّ في حديثه، ولم يتدخّل في أي مسألة سياسيّة، وكان إذا اجتمع بالناس في حوار أو مدارسة بذل وسعه في تجنب أي موضوع يُزعج الناس، ورغم هذا كابد -وهو طليق- أكثر من أصدقائه المعتقلين، يعمل ليل نهار على براءتهم وإطلاق سراحهم؛ ثم اعتُقل في ١٩٧١/٥/٣م بعد نحو شهرين من صدور المذكّرة، يقول عن هذه الفترة الحرجة:

"دخلت منزلي فرأيت الأمن السياسيّ قد قلبوه رأسًا على عقب، وجمعوا ما فيه في ردهته، فقالوا لي: أهلًا وسهلًا، ومضوا في التفتيش، لكنهم تظاهروا باللطف، فوجدتهم قد أغلقوا النوافذ، وأسدلوا الستائر؛ صادروا نحو أربعين كتابًا، لكن لم يصادروا أجزاءً من كتب ذات أجزاء تفقد قيمتها بفقد بعضها، وليس فيها واحد يديننى. قلت: "هل سأتأخر، فآكلَ لقيمات؟" أردتُ أن أسدّ مسغبتي، وأن أطّلع على نياتهم، قالوا: "كُل حتى تشبع، فلا ندري متى تعود". فتناولت شيئًا من الأرز، ثم ذهبوا بي إلى قسم شرطة "تَبَجِيكْ"، فلما وصلنا حلقوا شعري وشاربي، حتى ظننت أنهم سيأتون على حاجبيّ أيضًا، ثم التقطوا لي صورًا من كلّ جانب، وقبل أن أُسَاق طلبتُ ماءً للوضوء، فجاءني عريف بقصعة فيها ماء -لست أدري

طاهرًا كان أم لا- فتوضأت، فلما خرجنا صليت العشاء، فاسترحت لأنني أمنت فوت صلاة مفروضة حتى الصباح.

زجّوا بي في حجرة صغيرة، وجردوني من كل شيء حتى القرآن الكريم ودعاء "الجوشن الكبير"، فكنت أقرأ القرآن عن ظهر قلب، أما الجوشن فشقّ عليّ تذكره، فأحزنني كلّ الحزن أنّي لم أحفظه، والحسرة تقتلني يا ليتني حفظته، كانت الحجرة كأنها مخزن ليس فيها سوى رَوْزَنَة أي كُوّة في السقف، ولما زاد العدد استبدلوا بها حجرة كأنها غرفة طعام، فهي مرقدنا الجديد، لكن كان فيها نوافذ للتنفس الجيّد، فقضينا فيها عشرين يومًا... راسلْتُ "إسماعيل بُيُوكْ شَلَبي" سرًّا، ليأتيني بالجوشن الكبير، فجاء به قُبيل العصر، فانكببتُ عليه أقرؤه سرًّا بمتعة والدموع تخالجني القراءة، سبحان الله! كأني لم أقرأه من قبل... مكثنا هنا طويلًا، كانت ليالي ألم لكنها ملأى بالأمل، ليلاء لكنها منمنمة بالأضواء؛ عدنا جنودًا بعد عشر سنوات على أداء الخدمة العسكرية؛ فهذا ضابطُ صف حزِقٌ، كلما مرَّ بنا عنَّفنا، ورأى "مصطفى بِيرْلِكْ" وهو تِرْب أبيه يكلّمه مضطجعًا، فأغلظ له في القول: "ألم تؤدِّ الخدمة العسكرية؟! كيف تكلمني هكذا؟"؛ ثم علمنا أنه يضيق بالدين والمتدينين، ولهذا يقسو علينا. كنا نقرأ ونتعبد ونبحث عن سبيل للخروج، وبدأ بعض الوطنيين يصلّون.

ثم علمت أن كل موعظة ألقيتها سُجّلت في ورقات، وكتبوا اسمي بخطٍّ عريض أعلى كلّ ورقة، ولم يخلُ حديث أصدقائي من ذكر اسمي، فعل، وقال... أمرٌ محيّر، فوكيل النيابة يسأل: ما رأيك في هذا كلّه؟؛ فأجبته برباطة جأش: "يبدو أنَّ رجالَ المخابرات لا عمل لهم، فهم يكتبون هذا من وحي خيالهم".

أول جلسة محاكمة في ١٩٧١/٩/٢م في فترة اعتقاله

غضب وكيل النيابة، وقرأ الاعترافات الموقّعة تِبَاعًا، فنظرت في التوقيعات، فعجبت! لا أدري ماذا أقول، فشعرت بمشقة يوم الحساب وأهواله، اعترافات كلّها ملفقة ظلمًا... لم ينصفني أحد ولو بكلمة حتى الآن، فقلت: "لم أفهم شيئًا مما قلت، اختلط الأمر عليّ".

ضقتُ ذرعًا بالأمر، لقد أدليت بأقوالي من قبل في ثماني ساعات تمامًا في قسم الشرطة، سُجلت أجوبتي في صفحة واحدة لا أكثر، لأن الأسئلة كلها وهمية، فماذا أقول؟ أمّا أصدقائي فاعترافاتهم مُلزِمة، فقد كتبوها ووقّعوا عليها؛ لقد أرغمنا رجال الأمن على الاعتراف، لكن الأصدقاء لم يبالوا فقالوا الحق ولم تتناقض أقوالهم.

ذكروا بعض الأسماء وقالوا: "هل تعرف هؤلاء؟ كيف عرفتهم؟ ما الكتب التي تقرؤها؟ هل قرأت رسائل النور؟ لم أتوقع هذا السؤال فسؤال واعظ عن أمرٍ كهذا يُعد أمرًا كوميديًّا؛ قلت: قرأت شيئًا منها، سألوا

ما الذي قرأته منها، قلت: مثلًا قرأت "الكلمة الثالثة والعشرين" و"رسالة الحشر" وكذا وكذا، وكلّها كتبٌ حوكِمَت وبُرئت ساحتها مرارًا، وما زالوا يسألوني عن الكتب وأنا أسرد لهم أسماء كتب لا يعنيهم أمرها حتى قلت: لا يحضرني غير ما ذكرْت، فكفّوا عن أمر الكتب؛ لم يكن في أقوالي ما يدينني، لكن الأوامر العليا تحتِّم اعتقالي، وهذا ما حدث".

قضى ٢١ يومًا في مركز الاعتقال، وشهرًا في سجن "شِرِينْ يَرْ" وستة أشهر ونصفًا في سجن "بادَمْلي". كانت أيام السجن كَلَيالي الاعتقال في الضيق والضنك؛ فعانى من محاولة التأقلم مع هذه الظروف الصعبة، ومن وحشية السجّان التي تؤذي حتى متبلّدي المشاعر، لكن الذي أحزنه أكثر من حزنه مما عانى هو ما لقي جليسه المحامي السيد "بَكر بَرْق" من تحقير، ولما تسمّم لم يعرضوه على طبيب كأنهم يتمنون موته، بل صادروا ما معه من دواء لا غنى عنه، فتضاعفت آلام الحساسية التي كان يعاني منها ولم تعد تُطاق، وما كانوا ينقلونه إلى المستشفى إلا إذا أشرف على الهلاك.

كانت المحاكمة مصدرًا ينفُث آلامًا جديدة، أخطرها افتراءات فئة وغدر أخرى تظاهرت بالإخلاص؛ سعت المحكمة بكل سبيل لإدانة المتهمين بلا دليل، ففنَّدوا دعاواها ولم تطلِق سراحهم؛ يا لَهول ما مُنِيَ به الأستاذ فتح الله من غدر الصديق وافتراء العدوّ، لكن كل هذه المعاناة لم تحُل دون اتخاذه السجنَ "مدرسة يوسفية"، أنشأ علاقات طيبة حتى مع اليساريين، ووجدَ في هذا الظرف الخانق أناسًا برهنت فِعالهم على ولائهم واستقامتهم؛ ومن ذكريات اعتقاله أنّ بضعة مجاذيب في غرفته ضايقوه كثيرًا، ورمَوه وأصدقاءه في العقيدة، وقدّموا لهيئة المحكمة

معلومات خاطئة عنهم، كان لديهم انحراف عقائديّ خطير، يعتقدون أن جيشًا من الجن آتٍ لينقذهم؛ فحاورهم الأستاذ فتح الله ليصلح عقيدتهم.

في هذه الفترة توفِّي عمّه أنور، فزاد حزنه حزنًا، ثم أُطلق سراحه في ١٩٧١/١١/٩م، وعندما خرج لم يجد مأوًى فضاق صدره بذلك، يقول: "لما خرجنا استقبلنا صادق بك، فلما ركبت السيارة تذكرت أنه لا مأوى لي فقلت بكل أسًى: وماذا عساي أن أفعل إذًا؟.

أدرميت

لما أُطلق سراحه قدّم طلبًا لوزارة الأوقاف ليوظف مجدَّدًا، فتأخّر الردّ، فرجع إلى أرضروم، يقول: "انطلقت من إزمير وحقيبتي بيدي وشعور غريب ينتابني، كما نزلت بها قبل ست سنوات وحقيبتي بيدي والأحزان تتجاذبني". ولما قضى مدة في أرضروم رجع إلى إزمير ليعظ في جامعي "صَحْلَبْجِي أُوغْلو" و"آلْسَنْجَق"، جاء تعيينه في ٢٣ فبراير/شباط ١٩٧٢م "واعظًا أول" بأدرميت، يقول: "بين أدرميت وإطلاق سراحي ثلاثة شهور، لكن هذه الفترة ليست فترة انتظار تمامًا، عُدت إلى إزمير بعد أن زرتُ أرضروم لمدة قصيرة، لأعظ في جامع صَحْلَبْجِي أُوغْلو، ولما اعتقلْت نقل أصدقائي أثاث منزلي إلى شقة في منطقة "صادق بك"، فلما رجعت من أرضروم استأجرنا منزلًا فورًا في "مكتوبجي" بـ ٥٠٠ ليرة.

ثم ألغت الأوقاف إذننا في الوعظ، وسرعان ما مُنِعت أنا والأستاذ "شعبان دُوز" والأستاذ "عثمان قَرا" من الوعظ، كانت الإدارة العُرفية تضغط على الأوقاف لتبعدنا جميعًا عن إزمير. وعلى وزارة الأوقاف شاءت أم أبت أن تخضع لهذا الضغط، ولا يمكن أن نعِظ إلا بقرار آخر، كان "إبراهيم علوي بك" موظفًا في الشؤون الإدارية آنذاك، فدعاني إلى أنقرة، وقال لي: "أين تريد سوى إزمير؟" كان "إسماعيل بُيُوكْ شَلَبِي" في أدرميت، فرجوت أن يكون لي جليسًا، فقلت: "أدرميت"؛ فعُينت فيها، أمّا الأستاذ شعبان دُوزْ فعُيّن في "نازِلّي"، وعثمان قَرا ﷺ في "طُرْغُتْلُو"؛ نعم، طلبت أدرميت إلا أنني لم أكن أنتوي الذهاب إليها، زارني في منزلي

مفتي أدرميت رمزي بك ومعه السيد عارف جاغان ذو الخدمات الجليلة والقاضي نجم الدين كُوَنْلي ﷺ، وأصروا وكأنهم يتوسلون إليّ لأذهب إلى أدرميت: "من فضلك، ستخدم الدين هناك أيضًا!" لن أنسى ذاك الودّ، وليس لي أن أُعرِض عن رغبتهم الملحّة هذه".

يقول الحاج عارف جاغان بك عن انطباعه الأول عن الأستاذ فتح الله: "حبّ عظيم في قلبي للعلماء ربتني أسرتي عليه منذ طفولتي، نويت زيارة قبر "الشيخ إبراهيم حقي" ﷺ مؤلف كتاب "معرفت نامه" في أرضروم، فقررت زيارته مع أسرتي، وصلنا من طريق ممر زِيكَانا عبر طِرابْزُون، ثم علمنا أنه مدفون في تِلُّو، وما ضاع جهدنا إذ رأينا الشيخ محمد قِرْقِنْجي.

وعند عودتنا من أرضروم بتنا ليلة في "آيْدِنْ"، وتناولنا الفطائر المحشوة، وجئت لأحاسب فقيل لي: حسابكم مدفوع، دفعه "الحاج كمال أَرِيمَزْ" على طاولة مقابلة، لا أعرفه ولا يعرفني، لكنه رأى أسرتي محجبة ففعل ذلك... سألناه: لم فعلت ذلك؟ فقال: منزلي في طريق سفركم، أدعوكم للفطور، أول من حدثَّني عن الأستاذ فتح الله هو، فلم أَعِ ما يقول تمامًا؛ وبعده مفتي أدرميت فحدثنا عنه كذا وكذا وكذا، فانتهزت فرصة لزيارة سكن كستانه بزاري بإزمير، فاعتذر الأستاذ فتح الله عن الموعظة بمرضه، وكان يسكن في كوخ خشبي؛ تحدثت إليه، وقلت: ليتك تأتي إلى أدرميت، وعلمت بعد ذلك أنه كان سيأتيها بنفسه، وعندما جاء كان "صاري خُوجة" هناك، فذهبنا معًا للموعظة، فلما انتهت ذهبت مع الشيخ صاري إلى المكتب أسأله ما رأيه فيه؟ وماذا أفعل، أألزمه؟ وعهدي بالشيخ أن ذلك يغضبه، فقال: "ماذا تقول يا بني؟

إنَّه ذو علمٍ لَدُنيّ، إنه يبيّن حقائق الإيمان. "فاستمسكت به أكثر؛ وجاءني بعد ١٩٧٢م "سليمان قَرا كُلَّه" يصر عليّ لأشاركه الأنشطة السياسية، إذ سبق أن مارست شيئًا من السياسة في عهد "الحزب الديمقراطي"، وعزفت عنها بعد الانقلاب، فقلت: عذرًا، أنظِرني أسبوعًا لأفكر، فسألت عنه الأستاذ فتح الله فعرفت أنّه لا يعيرها اهتمامًا، فاعتذرْت".

للخدمات التي تحققت خلال عدة أعوام في أدرميت مكانة خاصة في وجدان الأستاذ فتح الله، يقول: "خدمة أدرميت سبقت غيرها، قام أهلها بواجبهم، خاصة السيد عارف جاغان وابن أخيه السيد عبد الله اللذين تحمّلا كثيرًا من النفقات، علاوة على ما يأتي من القُرى للطلبة الفقراء من مواد غذائية كالزبد والبيض والجبن واللبن".

مَغْنِيسا

أمضى الأستاذ فتح الله سنتين وأربعة أشهر في أدرميت، ثم عُيِّن في ١٩٧٤/٦/٢٩م واعظًا أول في مَغْنِيسا، والأمر فيها أصعب مما عليه في إزمير، يقول: "أقبل كثيرون على المواعظ، فالمسافة اقتربت والعوائق ارتفعت، لكنّ مَغْنِيسا لم تتحمّس للخدمة؛ ولم تأتِ لها بجديد، فكل ما فيها من وعظ وصحبة ومخيمات وغيرها امتداد للماضي؛ كلّ شيء كما كان، نعم ربما توافَد الناس فيها أكثر من أدرميت؛ لكن نسبته إليها خطأ، فالخدمة في تطور دؤوب بفضل الله ﷻ؛ أمّا أدرميت فقضيت فيها سنتين ونيّفًا بلغت الخدمة خلالها حدًّا أقَرَّ عيني رغم أني أتيتها على مضض -ولله في ذلك حِكَم- بل فكرت بالاستقالة، ولعلّ الأُلفة تفسّر هذا؛ فما أشقّ أن يفارق المرء إلِفَه إلى غيره، فأخلائي في إزمير، وفراقهم كهجران الأحبّة لا يُطَاق".

في مطلع رمضان الموافق ١٩٧٤/٩/٢٠م بعد نحو ثلاثة شهور من تعيينه في مَغْنِيسا توفي والده رامز أفندي، فتزلزل من الأعماق، وبدا هذا في وعظه وحديثه عن هذا الحدَث في مذكراته، يقول عن حقبة ما قبل الحدَث بقليل: "أجل، كان عام حزن عندي، فيه مات صديقي العزيز القاضي نجم الدين كُوَنْلي في أدرميت، وبعده بنحو شهر توفِّي والدي؛ وقبيل وفاتهما رأيت رؤيا، رأيت مرة أو مرتين أنّ طائرتين تبحرانِ في أعماق السماء حتى اختفتا، وها قد غاب الفرقدان في شهر، اللهم فبلغهما رضاك.

جامع مُرادية الذي كان يعظ فيه الأستاذ فتح الله بمَغْنِيسا

ويـوم تنفيـذ التعييـن فـي مَغْنِيسـا قبّلت يد أبـي وقلت: "أتـأذن لي؟ سأباشـر عملـي"، فقـال: "انتظـر إلـى الخميس القـادم"، ثم توقـف وفكّر وقـال: "اذهـب، فهنا عينان اثنتـان، وهناك آلاف العيـون تنتظرك"؛ فعدت إلـى إزميـر، ولـم يمض أسـبوع حتى جـاء نعيُه يـوم الخميـس، فعجِلْتُ إلى الحافلة، ومعي يوسـف بَكْمَزْجي وكُوسَـه محمود، وشـيّعَنا مصطفى بِرْلِـك إلـى موقف الحافلات، فكانـت المواصلات ميسّـرة، ركبنا الطائرة من أنقرة ونزلنا بأرضروم ظهرًا.

الأستاذ فتح الله يزور قبر والده رامز أفندي في قرية قُوزُوجُق في ١٩٨٨/١٠/٢٠م

كـم أحزنني أنني لم أكن بجواره لحظة الوداع، وكم أغمّتني غفلتي عن كرامتـه لما قال: "اذهب بعد الخميس القادم!" فذاك جرح ما زال يلتهب في أعماقي، وأنّى لي بأبٍ مثله؟

كان أبي دقيقًا في حياته، الصلاة هي جلّ ما يشغله، بكّاء، وقته ثمين، إذا رجع من الحقل يتناول كتابًا قبل أن يخلع نعليه فيقرؤه ريثما يحضر الطعام، للقراءة عنده متعة خاصة، لسانه رطبٌ دائمًا إما بالقرآن الكريم وإما بتَكرار ما حفظه من شعر عربي أو فارسيّ، أنا لا أتذكر أنني حفظت قصيدة البردة بنفسي، ولكني حفظتها من كثرة تكرار والدي لها. وكذا الأمر في الشعر الفارسيّ الذي كان يسرده أبي في وعظه، كان يملأ وقته كلَّه بالعمل الصالح الزّاكي، ولا يعرف الفراغ، وله فضل عناية بالتفكر".

ومضى الأستاذ فتح الله يعِظ في أماكن كثيرة إلى جانب المساجد ويدرّس الطلاب، ويحاضر في مجالات مختلفة داخل الوطن وخارجه، وفي مقاهي المدن عامّة وإزمير خاصّة.

المحاضرات وحديث المقاهي:
كي لا يبقى قلب لم تمتد إليه يد

ألقى الأستاذ فتح الله أولى محاضراته بجامعة أرضروم عن مولانا جلال الدين الرومي، فتركت أثرًا بالغًا في المحاضِرين والحاضرين كما سبق، وكانت الثانية في ندوةٍ نُظِّمت في "الهلال الأخضر" بإزمير، وحظيت محاضرته "التقنيات والعلوم الطبيعية في ضوء القرآن" باهتمامٍ كبير. وهاتان المحاضرتان كانتا استجابة لرغبة الناس لا لبرنامج معين. وفي هذه الفترة كان يلقي دروسًا في المقاهي. وهذا محرّم بك قد شهد مسامرات المقاهي الأولى وحذِقَ ظروفها وغاياتها، يقول: "جاء الأستاذ فتح الله إلى كستانه بزاري في شهر ١٩٦٦/٧م، كان واعظًا ذا أسلوب لم نعهده في الوعاظ من قبل، فهو ليس كغيره شكلًا ومضمونًا، فمثلًا عندما خرج ليعظ راقبنا صعوده على المنبر بشغف، ظنّنا أنه كما هي العادة سيرتدي تلك الجبة السوداء جُبّة الأستاذ يَشار المعلقة على الجدار، ثم يرقى المنبر، لكنه طلع علينا بجُبَّته البيضاء، فانفعل الناس عندما رأوه، وهبّوا من مجلسهم، حتى إننا نسينا تشغيل المسجِّل، فمن يومئذ أصبحنا نغدو إلى المسجد كلّ جمعة مبكّرين لنستمع إليه.

عُنِي بالشباب، ومعظم روّاد المقاهي منهم، كان روّاد المسجد معدودين، فقال: إذا كان الشباب لا يأتون، فلنذهب نحن إليهم، فبدأ بمنطقتنا "مَرْسِينْلي"، فحجزنا المقهى لأوّل لقاء بشقّ الأنفس، ولا أحد يعلم أنه سيتحدَّث، والمقهى مميّز، فهو مكتظ بالطلاب والشباب.

الأستاذ فتح الله في لقاء بأحد المقاهي في غازي أمير بمدينة إزمير عام ١٩٦٨م

وفي أول لقاء بدأ الأستاذ فتح الله بالحديث، وكنّا قد اقترحنا أن نقدِّمه للناس، ونمهّد للموضوع، فأبى وقال: ليكن تلقائيًّا؛ أتذكر أنه بادئ الأمر قال: "حديثي إليكم ليس هذا مكانه، لكن أسبابًا عدّة منها الترهيب من المسجد باعدَت بينكم وبينه فأتينا إليكم، فلما تعذّر على منبر المسجد أن يبلّغ الحقيقة، جئنا إلى طاولة المقهى..."؛ فغمغم من أبوا أن تتحول الطاولة إلى منبر فيما بينهم، وأغرقوا في السب والشتم والتهم والتجريح، فلم يُعِرْهم الأستاذ بالًا، ومضى في حديثه ساعةً في جوٍّ حَرِج، ثم توافد الناس حتى ضاق بهم المقهى، فبات ليلَه يحدّثهم نحو ثلاث ساعات ونصف".

في مطلع عام ١٩٧٥م نُظِّمت سلسلة محاضرات توضِّح لمن لا يأتون إلى المسجد رؤية الإسلام في مواضيع عدة شغلت الساحة؛ يقول الأستاذ فتح الله عن الهدف والنمط: "ضاق المقهى بالناس، ولما كان لقاء

حشد من الناس في مقهى يتطلب رخصة طبقًا لقانون التجمع والتظاهر، فتعالَوا بنا ننظّم محاضرات في أماكن أكبر وحشود أكثر بالرخصة نفسها؛ فكانت المحاضرة التالية عن "نظرية التطوّر" في المعرض الدولي بإزمير، وفي القاعة خمسة آلاف مقعد، فإذا بالناس خارجها أكثر ممن في داخلها، فصار المعرض كمصلّى العيد، وصلى الناس المغرب على العشب، ومن حضروا كانت لهم مشارب شتّى، فبعضهم يتساءل حائرًا: ماذا يمكن أن يقول واعظ في هذا الموضوع؟ وآخرون ساقهم حب الاطلاع.

"الجيل الذهبي" عنوان محاضرة وردَ على قلبي فجأة كنايةً عمن سيحملون على عاتقهم مسؤولية المستقبل، ثمة مسرحيّة بهذا الاسم مترجمة عن العربية تتحدث عن الرعيل الأول، لما عثرْتُ عليها تأملت صفات هؤلاء الربانيين الذين هم روح تبعث فينا الحياة بعد الموت، فأجملتُها في المحاضرة لتكون دعوة للجيل الذهبي".

كان موضوع نظرية التطور قد شغل الرأي العام التركيّ كثيرًا في الستينات والسبعينات، وساد اتجاه ماديّ لا يقبل الناس خلافه، كأنه هو الحقّ دون ما سواه، فتأثر كثيرون بهذا، وعانوا أزمة عقائدية، ولم يفنَّد هذا المفهوم في ضوء مبادئ الإسلام والعلم الحديث رغم أنّه يناقض حديث الإسلام عن نشأة الخَلْق، وادّعى بعض الناس أن الإسلام غُلِب أمام هذه النظرية؛ وفي بيئة كهذه جاءت محاضرات الأستاذ فتح الله مدوّيةً؛وظَّف فيها العلم الحديث، والعلوم الإسلاميّة، وكشف عن خبايا المسائل المستعصية، ولم يكن يعترض أو يوافق من يؤيّد الاتجاه الماديّ بل يكتفي بعرض ما في الإسلام من ثراء له فيه سعة اطلاع، ويجيب بكلّ ثقة على قضايا العصر إجابات مطمئنة مقنعة.

جذبت مواضيع مواعظه الأنظار، ففي حديثنا عن أيام إقامته بأدرنه ذكرنا أنه خالف المعتاد، واتخذ مما يواجهه المسلمون من مشكلات عصريّة موضوعًا لمواعظه، دون أن يدخل في أمور سياسية. كانت أسئلة المسجد تأتي مكتوبة، جاءته مئات الأسئلة المتنوّعة، وإذا تأمّلت أجوبتها في سلسلة "أسئلة العصر المحيّرة" تجد أنها قارب النجاة لكثير من العقلاء اليوم، ففيها ما له صلة بالطب والاقتصاد والأدب والحقوق، وهي مقنعة ومستمدة من العلم الحديث والتراث، وتدلّ أنّ الإسلام عالج الموضوعات الإنسانية كافَّة، وتوضّح بأسلوب متميز لا حرَج فيه أنّ الإسلام هو العلم.

كانت محاضرة "الجيل الذهبي" بمنزلة البيان العامّ، ففي مطلع القرن العشرين تنوَّعت تسمية العلماء للجيل المثالي، فسمّاه بديع الزمان "الجيل الجديد"، وسمّاه الشاعر الكبير محمد عاكف "جيل عاصم"[٢٦]، وأطلق عليه نجيب فاضل وسَزائي قَراقُوج، ونور الدين طُوبْجو وغيرهم أسماء عدّة... أما الأستاذ فتح الله فاستلهم حديثه عن الجيل المثالي الذي ينشده من آراء هؤلاء خاصّة بديع الزمان، فسماه "الجيل الذهبي".

استهل المحاضرة بقوله: "لا بد لأي جيل من الأجيال من صفات مكنونة تجعله ذهبيًّا، وإلا لما استحق هذا الاسم"، إنها صفات ضرورية لجيل يستشعر المسؤولية تجاه العقيدة والفكر والحركة. ورسم في مقالاته بمجلة سِيزِنْتي، وكتاب "الموازين" و"العصر والجيل" صورة الجيل الذهبي جسدًا وروحًا، وصورة حركة أطلَقَ عليها فيما بعد "حركة المتطوعين".

كانت أول موعظة له في إسطنبول في ٢٦ أغسطس/آب ١٩٧٧م بمسجد "يَني جامع" في أَمين أُونو، تحدث عن التزام المسلم والصفات

(٢٦) عاصم هو ابن محمد عاكف.

التي عليه أن يتحلَّى بها، وأنّ التغيير يبدأ من الفرد، وكانت الثانية في ٩ سبتمبر/أيلول ١٩٧٧م في مسجد "السلطان أحمد"، حضرها رئيس الوزراء آنذاك "سليمان دَمِيرَلْ" ووزير الخارجية "إحسان صبري".

في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٧٦م نُقِل من مَغْنِيسا إلى مركز بُرْنُوَا في إزمير، وعقد هناك جلسات "الأسئلة والأجوبة" السالفة الذكر، يقول عن رغبته في النقل: "طلبت إزمير، فعُيِّنت في بُرْنُوَا، فهي من إزمير، وهذا خير، فبُرْنُوَا في الوعظ والمسامرات امتداد لمغْنِيسا، فاستمرّت سلسلة المواضيع؛ وعقدت ندوة للأسئلة كلّ أسبوع، وأتيحت الفرصة للحركة أكثر، فكانت الدعوات تأتيني من كل حدب وصوب، فأحاول أن ألبّيها".

لم يقف عند الوعظ والمحاضرات وحوار المقاهي بل رغب بالسفر خارج الوطن لتمتد يده للناس جميعًا، قال: "من أين الطريق لاستمرار هذه المحاضرات خارج الوطن"، اقتنع بضرورة ذلك خاصة بعد أن رأى ثمار المحاضرات، فأرسلته الأوقاف في سلخ عام ١٩٧٧م إلى ألمانيا، فحاضَر وحاور في برلين، وفرانكفورت، هامبورج، وميونخ. وكان يتطلع إلى السفر لبلدان أوربية أخرى لكن هذا لم يتحقق لعدم توفر الإمكانيّات.

انطلقت مجلة سِيزِنْتي في فبراير/شباط ١٩٧٩م وعلى غلافها بيت للشاعر محمد عاكف:

إن لم ترحم نفسك فهلا أولادَك رحمتَ

كان الأستاذ فتح الله يكتب المقال الرئيس؛ وفي مقاله الأول "**لعلك تكفّ عن البكاء يا بنيّ**" أبان عمّا يستشعره من مسؤولية تجاه الإنسانية جمعاء، والمثُل والآمال التي يحملها لرفع المعاناة، يقول -وهو ينفث أشجان روحه للأمة-:

لعلك تكفّ عن البكاء يا بنيّ

سلكنا هذا الدرب، لنشاطرك آلامك، ونُسكن همومك، ونَعْمُر قلبك، فلا تبتئس منا! تأخرنا فلم نسعفك في حينه، لكن أيقِنْ أنّنا نحمل بين جوانحنا دائمًا أنين يعقوب عليه السلام وعشق زليخا وهجرانها.

كلما أبصرتُ قدّك السويّ منقصمًا تمزق قلبي وانفطر؛ وكم انحنى ظهري واغرورقت عيناي أمام نظراتك الحزينة البائسة، أردت أن أقتبس من أُغنيتك نغمة لكل صرخاتي، وأتحدث عن ملحمتك، فأحرَق أنينك وجداني، وهالَني أمرك، وأصبحت مهمومًا حزينا لما أصابك...

زد على ذلك أنني كنتُ أستحي أن أمد يد العون إليك، أو أن أقابلك بشفقةٍ زائفة؛ إذ إنهم ضيّعوك على مرأى مني ومسمع، وآذوك فآل أمرك إلى هذه الحال. لقد رأيتُ ما حدث عندما أخمدوا جذوة عقلك، وشغلوك ببطنك عن قلبك، ومع ذلك لم أستطع أن أمدّ يدي المثقلة بالذنوب إليك... ورغم استغاثتك لم أستطع... قدَرُك قدَر "فاؤُسْت"، إذًا فمن "مَفِسْتُو"؟ من فعل بك كل هذا؟.

كنتَ في قرار مكين، ومستقر آمن، ورزق مقسوم، وكان كل شيء على ما يرام، ثم أتيت إلى هذا العالم الموحش، فما وجدت شيئًا ولا عرفت أحدًا؛ لم يسمع أنينك وصراخك أحد سواك، ويكأنّك ندمتَ ألف مرة على خروجك، لكنه قدرك المحتوم.

أما من يطوفون بك فمنتهى سعيهم مَلْء معدتك وتلبية رغباتها، فمِن يومئذ وأنت تصرخ صراخًا يحرق القلوب، وهم يغفلون عنك بدءًا

من ذلك الحين، وقد كنتَ حِبّهم ومبعث سرورهم في أيديهم وأحضانهم، كنتَ وردة فريدة على الصدور، لكن شيئًا من ذلك لا يعود عليك بشيء، فكنت غريبًا، وحيدًا، بلا أنيس...!

فماضيك رحِم حاضرك، وحاضرك رحِم مستقبلك المبهم، فأنت في مفترق طرق يا بنيّ!

ائذن لي أن أكون حاميك في هذا العَناء، أعزف بريشتي من أجلك، وأُسمع روحَك أنيني. إنني أطلب الصفح منك باسم كل المجرمين ورأسي تحت قدميك. إننا خذلناك وأنت بين العاصفة والنار تستغيث، فاعف يا بنيّ عمن كانوا سبب وجودك في سبيل لذة عابرة، فأشبعوا بطنك وأظمؤوا قلبَك، وشغلوك عن الخلود بفترة مؤقتة، وزودوا روحك بالسفاهة والوقاحة، وأوقعوك في خضم البؤس والتعاسة. فاعف عنا يا بني.

فترة انقلاب ١٢ سبتمبر/أيلول ١٩٨٠م:
الحنين إلى الوعظ

دعا الأستاذ فتح الله الناس إلى الاعتدال والفطنة في الحوادث الاجتماعية والسياسية التي تسارعت وتيرتها في تلك الأيام، نبههم إلى أن المؤمن أس الأمن، فعليه أن يتجنب المشاركة في النزاعات الهدّامة، وما يُرفع من شعارات لا نفع فيها للإسلام ولا للأمة بل هي ضرر محض؛ فهذه الحوادث مكيدة لنا دبّرتها عدة قوًى خفية، فلا ينبغي أن نُقحَم في لعبة كهذه؛ وفي مواعظه قبل انقلاب ١٩٨٠م بيّن للناس خصوصًا للشباب الخطَرَ المحدِق بهم، كانت آخر موعظة قبل الانقلاب بأسبوع في بُرْنُوَا، والتقى بعدها بـ"طُرْغُوت أُوزال" في غرفة إمام المسجد.

يحلّل الأحداث قائلًا: "إن الجو الذي ساد البلاد قبل ١٢ سبتمبر/أيلول ١٩٨٠م، كان ينذر بانقلاب، وكان هذا واضحًا للعِيان، حتى إن من حذَقوا الأحداث أيقنوا بوقوع انقلاب، ولا حاجة في هذا لا إلى فراسة ولا إلى كرامة، فمن هنا كنت أشعر به كسائر الناس، وما تحدثت عنه مبنيّ على هذا.

أعتقد أنه كغيره من الانقلابات، فالشباب في الشوارع مسلّحون، والشعارات تهتف لماركس ولينين، والحقد والكره أعمى البصائر؛ وانتشرت سياسة التخريب، وأصيب المجتمع مجددًا بحالة روحية تعج سمة للدُّوَل المتخلفة كالتحريض على التدخل العسكري وفكرة "لنهدمْ أولًا ثم نخطّط". فالمناخ الذي لا يُقبل فيه الرأي الآخَر، ولا تتعايش فيه الجماعات، يتيح الفرصة للتدخل، وتغدو فيه أتفه الخلافات مثارًا

للنزاع؛ والنتيجة هي القضاء على الحرية والديمقراطية بتوتُّر مُصطنع بين يمين ويسار.

ومن المفيد هنا أن ننوه بأن بعض المؤسسين لهذا الانقلاب قاموا بحراك ملغوم إلا أن الله شاء أن يتسبب حراكهم في انتفاضة مجتمعية. وأبطلوا لُعبة بعض المخاطرين التي تجعل من تركيا سفيرًا للاتحاد السوفيتي، عندما أتى الاتحاد السوفيتي السطح المشرِف على السقوط، وحالوا بعلمٍ أو بلا علم دون سقوطنا في هاوية سحيقة، وربما مهّدوا لأناس محترمين السبيلَ لخدمة الوطن".

لم تدعه شرطة إزمير وشأنه بل ضيّقت عليه، فقدّم طلبًا لتغيير محل عمله فعُيّن واعظًا أول في "جَناقْ قَلعه" في ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٠م، لكنه لم يتمكّن من العمل لمرض أصابه، حتى أُعلنت حالة الطوارئ، ووقعت إجراءات تعسفية منعته القيام بعمله، ثم صدرت فيه مذكرة اعتقال، فاستقال في ٢٠ مارس/آذار ١٩٨١م من إدارة الوعظ؛ لكنه استمرّ في الخدمة تحت نِير إجراءات الاستبداد، ورغم الانتخابات الحرّة إلا أن الإجراءات التعسفية ما زالت مفروضة عليه؛ فطاف الأناضول، فتعرّف على أهلها عن كثَب، ومهد لنشر الخدمة فيها، وزار أَخلاط بلد أجداده، فاعتُقل في مدينة "بُرْدُرْ" في ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م، وحققوا معه فترة طويلة، ثم رُحِّل إلى إزمير، فلما لم يعثروا على ما يدينه أخلوا سبيله.